أبو تمام والبحتري والمتنبي في خميسية الرفاعي

بقلم: عبدالرحمن محمد الأنصاري
السعودية

لم يكن الكثيرون منا يدركون ما كان يضطلع به المجلس الأسبوعي لمعالي الأديب الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي رحمه الله، الذي كان ينعقد مساء كل خميس بدارته بالرياض، في ساحة الأدب والفكر حتى غادرنا ذلك العلم البارز والقمة الشامخة الذي كان مثالاً للخلق والكرم والنبل، وفتحنا أعيننا فجأة على الفراغ الذي تركه غيابه في ساحتنا الأدبية والفكرية.

ففضلاً عما كان تزخر وتحفل به خميسية الرفاعي من الأدب والفكر فإن من مميزاتها التي كانت تنفرد بها، أنه قلما وفد على الرياض قادم ذو شأن في مجال الفكر والأدب إلا وكان ضيفاً من ضيوفها يسعد بلقائه رواد الخميسية.

إن معرفتي بالأستاذ عبدالعزيز الرفاعي مرادفة من حيث الزمن بمعرفتي بنفسي منذ عرفتها وهي متعلقة بالقراءة ومتابعة ما يكتب بشغف ونهم وهذا أمر أقرره هنا لتسجيل الواقع وشكر الله عز وجل الذي لو شاء لي أن أسلك طريقاً غير هذا لسلكته.. فتحت عيني على أدب الرجل وعلى مشروعاته الفكرية والثقافية (الصغيرة) في عينه، والكبيرة في أعين الناس.. وفي بدايات عملي الصحفي أذكر أن من أوائل المقابلات التي أجريتها مع الأدباء تلك التي أجريتها مع معاليه في أوائل التسعينيات الهجرية في منزله الصيفي بالطائف ونشرتها جريدة (البلاد) وعندما انتقلت إلى العاصمة الرياض تسنت لي متابعة الرجل عن قرب، فقد أصبح منتداه الأسبوعي الذي يعقد في (دارته) مساء كل خميس أحد روافدي الثقافية والفكرية.

إن من يتأمل حياة الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي سيجد نفسه في حيرة من أمره لو أنه أراد أن يتحدث عن جانب دون آخر.. فقد قلت له ذات مرة في رسالة مفتوحة ضمن رسائل طُلب مني توجيهها لعدد من الفضلاء عبر الجريدة وكان الأستاذ الرفاعي أحدهم، قلت له: إن من فضل الله عليك أن وهبك علماً ومعرفة، وما أكثر ما رأينا الخلل الذي ينشأ عند البعض عندما يكون صاحب عقل فقط من غير علم.. ومن هنا يا سيدي فأنت من الذين لا يشقى بهم جليس، وعن نفسي أحدثك: إنني أتعلم منك صامتاً مثلما أتعلم منك متكلماً.. فكلامك معرفة وصمتك حكمة.

فالرجل لا يتصنع الوقار، فالوقار سمة من سماته، وهو كذلك لا يتصنع التواضع فالتواضع

الرفاعي .. الثالث من اليمين .. في ندوته الخميسية

ولين الجانب من مكونات الطينة التي خلقه الله عز وجل منها، ولا أذكر - على طول ملابستي له- أنني سمعت كلمة عوراء منه، كما لا أذكر أنه تناول إنساناً في غيبته أو حضوره بما لا يليق.

ومن طريف ما قد يحسن إيراده هنا بالمناسبة، أنني عندما كنت مديراً لمكتب هذه الجريدة (البلاد) بالرياض، كنت أتولى تغطية ما كان يدور في ندوته والتي قلما كان وفد على العاصمة أديب ذو شأن علمي إلا وأنس بها وأنست به كما أسلفتُ.

وقد حدث ذات مساء أن قدم على الندوة - بمقرها القديم في الملز بالرياض - ثلاثة نفر من بلد عربي شقيق فتولى أحدهم التعريف بزميليه وبنفسه، فقال: (إننا كلنا شعراء) وأشار إلى أحد رفيقيه فقال: اسمه فلان ابن فلان ونحن نعتبره (أبا تمام).. وانتقل إلى الآخر، فقال: هو فلان بن فلان، ونقول عنه (البحتري).. أما أنا فاسمي خالد.. ولكنهم يقولون عني (المتنبي)..!

اشرأبت أعناق الحضور، وتطلعت نفوسهم إلى (أبي تمام والبحتري والمتنبي). وهم معهم وجهاً لوجه وكأن الأرض قد انشقت عنهم.. وكانت الصدمة بشعر الشعراء الثلاثة بحجم الصدمة بانشقاق الأرض عنهم قبل يوم البعث والنشور.. فقد بدأ أبو تمام بالإنشاد، وتلاه صاحباه، أما الشعر الذي صدحوا به فهو من قبيل ما تحفل به كتب الحكايات الشعبية كقصة عنترة بن شداد والزير سالم وتغريبة بني هلال.. كانت أمسية لطيفة أذكر أن من بين حضورها معالي الأديب الأستاذ عبدالعزيز السالم.

وباعتباري صحفياً فليس مثل هذا مما يفوت مثلي.. فقد كتبت عن المتنبي والبحتري وأبي تمام الذين انشقت عنهم الأرض وحضروا ندوة الرفاعي.

والشاهد من إيراد هذه الواقعة أن الأستاذ الرفاعي الرجل المهذب المضياف الكريم اعتبر أن ما نشر عن الشعراء الثلاثة من كلام هو إلى السخرية أقرب منه إلى شيء آخر .. اعتبره أمراً مس بعض ضيوفه.. وهو لم يقل لي ذلك بل ولم يلمح به مجرد التلميح، وإنما الذي لمح لي به بأسلوبه المهذب صفيه وخليله الأستاذ عبدالرحمن ابن فيصل المعمر.

هذا مثال للطف الرجل وكرمه. فداره مثل دار أبي سفيان التي من دخلها فهو آمن حتى لو كان متلبساً بانتحال شخصية أبي تمام والبحتري والمتنبي!! ■